﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: 38]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا أعلم الله تعالى آدمَ وزوجَهُ بأنّه يَبتليهم بالطاعة، وأنّه يُجازيهم بالجنّة عليها وبالنّار على تركها، وأنَّ هذا الابتلاءَ وقع عند الهُبوط على الأرض بالعداوةِ اللّازمةِ مِن إبليسَ لهما، كأنَّه قيل: ما وَجهُ الخلاصِ مِن آثار هذه العداوةِ؟ فجاء الجوابُ في هذه الآيةِ بأنَّه: اتِّباع هُدى اللهِ سبحانَه وشرعِهِ في قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱهْبِطُواْ﴾: الهاء والباء والطَّاءُ تدُلُّ اشتقاقاتُها على معنى الانحدار[2]، وقيَّده الرَّاغبُ بكونِه على سبيل القَهْرِ، ومنه: هبوطُ الحجَرِ، وإذا استُعمل الهُبوطُ في حقِّ الإنسان؛ فذلك على سبيل الاستخفاف[3].

والهبوطُ في قول الله تعالى ﴿ٱهْبِطُواْ﴾: هو النُّزولُ من علوٍ إلى سُفْلٍ، ومِن عزٍّ إلى ذُلٍّ[4].

2) ﴿خَوْفٌ﴾: مادَّةُ الخَاء والواو والفاءِ تدلُّ تصاريفُها على الذُّعرِ والفَزَعِ[5]، والخوفُ مِن الله لا يُرَاد به ما يَخطُرُ بالبال مِنَ الرُّعب، كاستِشعار الخَوف من الأسد، بل إنَّما يُرَاد به الكَفُّ عَنِ المَعاصي واختيارُ الطّاعَات[6].

والخَوفُ ضدُّ الأَمنِ[7]، وحقيقتُهُ: أنَّهُ غَمٌّ يلحقُ العبدَ مِنْ توقُّعِهِ المكروهَ[8]، فهو خاصٌّ بالزَّمن المُستَقبَل[9]، ويُستعمَل في الأمور الدُّنيويَّة والأُخرَويَّة[10].

---

(1) الزجَّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/117، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 1/295.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هبط).
(3) الرّاغب، المفردات: (هبط).
(4) نشوان الحِميري، شمس العلوم: (هبط).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خوف).
(6) الرّاغب، المفردات: (خوف).
(7) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (خوف).
(8) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 428.
(9) السَّمين، الدُّر المَصون: 1/297، والشّنقيطيّ، العذبُ النَّمير: 1/284.
(10) الرّاغب، المفردات: (خوف).

3) ﴿يَحۡزَنُونَ﴾: جذرُ هذه الكلمةِ وهو الحاء والزَّاي والنُّون يدُلُّ على مَعنَى خُشُونةِ الشَّيءِ، والشِّدَّةِ فيه[1].

ومنه: الحَزَنُ؛ وهو الغِلَظُ مِنَ الأرضِ[2].

ومنه: الحُزْنُ؛ وهو ضدُّ الفَرح والسُّرور؛ لأنَّه شدَّةٌ تَعتَري قلبَ الإنسان[3]، وخُشُونةٌ في النَّفس لِما يحصُلُ فِيه مِنَ الغَمِّ[4]، وحقيقةُ الحُزْنِ: غَمٌّ مِن أمرٍ فائتٍ[5].

ولا يَحصل الحُزْن بالاختيار، فنَفى اللهُ تعالى عن أهل الجنَّة حقيقته؛ وهُو تعَاطي ما يُورث الحُزنَ واكتسابه.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

قال اللهُ تعالى لآدمَ وحوَّاء: اهبطُوا جميعًا مِنَ الجنَّةِ إلى الأرض؛ وسَيَأْتِيكُم وذرِّيَّتَكُم هدايةٌ منِّي إلى الحقِّ على أيدي رُسلي؛ فمن تَبِعَهَا فلا خوفٌ عليهم فيما يَستَقبِلونَ في الآخرة، ولا هُم يَحزَنون على ما فاتَ مِنَ الدُّنيا [6].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ فَصلِ قول الله تعالى ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا﴾ عَمَّا قَبلَه:

تَشويقُ المُتَلَقِّي وتَـشـويـرُ فِـكـرِهِ لمعرفة الجواب

فُصِل قولُه سبحانه: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لما بينَ الجُملتَينِ مِن شِبهِ كمال الاتِّصال، وهو المعروف بـ (الاستِئنَافِ البيانيّ)؛ إذ الجُملةُ واقعةٌ جوابًا عَنْ سؤال ناشئ عَن قولِه تعالى قبلُ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، والتَّقدير: ماذا وقعَ بعدَ قَبولِ توبَةِ آدمَ عليه السلام؟ فجاء الجوابُ: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا﴾[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حزن).
(2) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (حزن).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حزن).
(4) الرّاغب، المفردات: (حزن).
(5) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/321، والشّنقيطيّ، العذبُ النَّمير: 462/4.
(6) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/58، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/240، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 50، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 7.
(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/92.

ويَحتَمِلُ أن يكونَ لكمال الاتِّصال[1]؛ إذ وقَعَتْ هذه الجملةُ تأكيدًا للأَمر الأوَّل بالهبوط -على القول بأنَّ الهُبُوطَين واحدٌ-، ويَحتَمِلُ أن يكون لكمال الانقِطاعِ[2]؛ لتبايُنِ الغَرضَين، فالأمرُ الأوَّلُ بالهُبوطِ أمرٌ تَكوينِيٌّ، والآخر أمر تَكليفِيٌّ.

سِرُّ مُخاطبَةِ الزَّوجَين بخطاب الجَمع:

الجمع للتَّشريف ولبيان أصل النَّوع الإنسانيّ

خُصَّ آدم وحوَّاءُ بخطابِ الجَمعِ في قوله تعالى: ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾ تَشريفًا لهما، وخُوطبا بما يخاطَب بِهِ الجمع؛ لأنَّ الاثنين أقلُّ الجمع عندَ بعض أئمة العربيَّة، أو أنَّه خطاب لَهُما ولذريَّتهما؛ لأنَّهما لمَّا كانا أصلَ هذا النَّوع الإنسانيّ جُعلا بمنزلته، ويدُلُّ على ذلك قوله تعالى ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾؛ فإنَّ هذه الجملةَ الواقعة حَالًا مبيِّنًا للهَيئَة الثَّابتة للمَأمورين بالهُبوط تُفيدُ ذلك[3].

نُكتَةُ تَكرارِ الأمر بالهُبوط:

العَفوُ عَنِ الذَّنبِ لا يُبطِلُ العقوبَةَ التَّأْديبيَّةَ

كُرِّر الأمرُ بالهبوطِ في هذه الآية من قَولِه ﷻ: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ﴾ مع قوله قبلُ: ﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾، وفي سبب هذا التَّكرار ثلاثةُ مسالكَ[4]:

أحدُها: أنَّ تَكرار الأمر بالهبوطِ لاختلافِ حَقيقتِهما؛ فإنَّ الأوَّلَ أمرٌ بالهبوط مِنَ الجنَّة إلى السَّماء، والآخَرَ: أمرٌ بالهبوط مِنَ السَّماء إلى الأرضِ. وفي هذا نَظَرٌ؛ لعدم جريان ذكر السَّماء.

ثانيها: أنَّهُ مِن باب الإطناب بالتَّكرارِ؛ وفائدتُهُ: تحقيقُ كمالِ ارتباط النَّظْم؛ إذ لو جاء قولُه: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾ بعدَ قولِه سبحانَه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ "لم يَرتَبِطْ كمال الارتباط، ولَتَوَهَّم السَّامع أنّه خطابٌ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/239.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 1/239.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/270، والشَّوكانِي، فتح القدير: 1/79.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/440.

للمُؤمِنين على عادَةِ القرآن في التَّفَنُّنِ، فلِدَفعِ ذلك أُعِيدَ قولُه: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ﴾، فهو قولٌ واحِدٌ كُرِّر مرَّتين؛ لِرَبط الكلام"[1].

وبُنِيَ على كلٍّ مِنَ المَوضِعَين معنًى غيرُ الّذي بُنِيَ عليه الآخَرُ؛ فالأوَّلُ بُنِيَت عليه العَداوةُ في قوله تعالى: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾، والآخر بُنِي عليه إتيانُ هدى الله في قولِه سبحانه: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾؛ لِتَحصُلَ فائدةٌ جديدةٌ في الكلام؛ لئلَّا يكونَ تَكرارًا مُجرَّدًا، وهذا يُسمَّى في البلاغة: التَّرديد[2].

ثالثُها: أنَّه من باب الاحتِراسِ[3]، وذلك أنَّه قد ذُكر الأمرُ الأوَّلُ بالهُبوطِ، ثُمَّ ذُكِرَتْ توبةُ الله تعالى على آدمَ عليه السلام، فقد يُظَنُّ أنَّ التَّوبة أوجبتِ العَفْوَ عنه مِنَ الهُبوطِ مِنَ الجنَّةِ، فأُعيد الأمرُ بالهُبوطِ دَفْعًا لذلك التَّوهُّم.

تَوجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفظيِّ:

التَّكامُلُ الدّلاليُّ في الألفاظِ القُرآنيَّة

جاء في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ [الأعراف: 24]، وفي سورة طه: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ [طه: 123] بذكر جملة: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ في السُّورتَين، ولم تَرِدْ هذه الجملةُ في هذه الآية: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ﴾؛ وذلك اكتفاءً بورودِها قبلَ آيتَين في السِّياق، وهي قوله تعالى: ﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ [البقرة: 36]؛ فلو جاءت هذه الجملةُ في هذه الآية معَ الاتِّصال والتَّقارُب بين الآيتين؛ لكان تَكرارًا مِن غير فائدةٍ جديدةٍ، يُنزَّهُ عنهُ كلامُ الله تعالى، بخلاف ما جاء في الأعرَافِ وطه[4].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/440.

(2) الماوردي، النُّكت والعيون: 1/262.

والتَّرديد: تَكرار اللَّفظ متعلِّقًا بغَيرِ ما تعَلَّق به أوَّلًا، كقولهم: السَّخِيُّ قريبٌ من الله، قريبٌ مِنَ النَّاس، قريبٌ من الجنَّةِ، يُنظر: ابن الزَّمْلَكاني، التّبيان في علم البيان، ص: 186.

(3) الاحتِراسُ: أن يُؤتى في كلامٍ يُوهم خلافَ المقصودِ بما يَدفَعُهُ.

يُنظر: الخطيب القَزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 3/208.

(4) ابن الزُّبير الغَرناطيّ، ملاك التَّأويل: 1/30.

نِكَاتُ استِعمَالِ (إنْ) الشَّرطِيَّةِ بدلًا مِنْ (إذَا):

أثرُ اختيارِ الأداةِ النَّحويَّةِ الأنسبِ في تَكثيرِ المَعاني

جِيء بأداة الشَّرطِ (إنْ) في قوله: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾ وهي دالَّةٌ على الشَّكِّ، مع أنَّ إتيان الهُدى أمرٌ واقعٌ قطعًا، وفي دلالات حرف المعنى هذا مَسالِكُ، مِنها[1]:

أَوَّلًا: أنَّ الخطاب جاء على عادَةِ الملوكِ في التَّعبير عَنِ الأمور المُحَقَّقةِ الوقوعِ باللَّفظ المُحتَمِل.

ثانيًا: أنَّ الشَّكَّ راجعٌ إلى اتّباع الهدى، لا إلى إتيانِ هدى اللّهِ تعالى للنَّاس، واتِّباعُ النَّاسِ الهدى أمرٌ غيرُ مُحقَّق الوقوع.

ثالثًا: ظهورُ أدِلَّةِ وحدانيَّةِ اللّه تبارك وتعالى ظهورًا لا يتأَتَّى معه أدنى خفاء، بحيثُ لو قُدِّرَ احتمالُ عدمِ إرسال الرُّسُل؛ لاستدلَّ العبادُ على الوحدانيَّةِ بما يرونَهُ مِنْ مشاهدَ تُرشِدُ إليها.

رابعًا: لـمَّا أُبْهِمَ زَمَنُ الإتيانِ عُلِّقَ بأداة الشَّكِّ؛ فإنَّ أداة الشَّرطِ (إنْ) كما تُستعمل فيما يُشكُّ وقوعُهُ، تُستعمَل كذلك فيما أُبْهِمَ وَقتُ وُقوعِه.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿مِّنِّي﴾ دُونَ (مِنَّا):

مَصدرُ الهُدى هو الوَحيُ المُنَزَّلُ

كان مُقتضى الظَّاهر أن يَرِد (فإمَّا يأتيَنَّكم منَّا هُدًى) ليوافقَ صدرَ الآية؛ فإنَّ مطلَعَهَا ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ﴾، فيكون هذا التفاتًا في العددِ مِنَ الجَمعِ إلى المفردِ؛ ونُكتَتُه: الدّلالة على أنَّ الهُدَى لا يكون إلَّا منه سبحانَه، "فناسبَ الضَّميرَ الخاصَّ كونُه لا هاديَ إلَّا هو تعالى، فأُعطي الخَاصُّ الّذي لا يُشارِكُهُ فيه غيرُه الضَّميرَ الخاصَّ الّذي لا يَحتَمِلُ غيرَه تعالى"[2].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/272، وابن عَرَفة، تفسير ابن عرفة: 1/106، والآلوسي، روح المعاني: 1/240.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/272.

دلالة تقديمِ الجارِّ والمَجرُورِ في ﴿مِّنِّي﴾:

الهِدايَةُ الكاملةُ مِنَ اللهِ تعالى وَحدَه

تقديم الجارِّ والمجرورِ ﴿مِّنِّي﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾؛ لإفادة القَصْرِ؛ إذ الأصلُ قبل التَّقديم (فإمَّا يأتينَّكم هُدًى مِنِّي)، فالهُدى الكاملُ لا مصدَرَ له، ولا يتحقَّق إلَّا مِنَ اللهِ سُبحانَه، وفيه لُطفُ العنايةِ الإلهيَّة بالعبادِ، فإنَّ الهُدَى منه ﷻ، فقبلَ معرفةِ إتيانِ الهُدى، علينا أن نعلمَ أنَّه آتٍ من اللهِ تعالى.

سِرُّ تنكيرِ ﴿هُدًى﴾:

عَظَمةُ الهُدى وكَثرَةُ آثارِهِ الحَسَنَة

يدلُّ تنكيرُ ﴿هُدًى﴾ في قوله سبحانه: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ على تعظيم هذا الهدى وكثرته[1]؛ فهو هُدًى عظيمٌ في نفسِهِ، عظيمٌ وكثيرٌ في آثارِهِ، وهذه الدّلالة أُخذتْ من السِّياق؛ فإنَّ الهدى آتٍ من اللهِ تعالى، ويترتَّب عليه نفي الخَوْف والحزن.

وَضعُ المُظهَرِ مَوضِعَ المُضمَرِ في قوله ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾:

وُجوبُ اتِّباعِ الهدى وترسيخُهُ في الأَذهان

مُقتضَى الظَّاهر أن يَرِدَ بعد المُظهرِ مُضمرٌ، فيكون (فإمَّا يأتِيَنَّكُم منِّي هُدًى فمَنْ تبِعَهُ)، إلَّا أنَّه أُظهِرَ في قول اللهِ تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾، فيكون هذا مِن وَضعِ المُظهَرِ مَوقِعَ المُضمَرِ، ولهذا الأسلوب نُكَتٌ[2]:

إحداها: الإيماءُ إلى العلِّيَّةِ؛ بأَنْ يكون الهدى واجبَ الاتِّباعِ بالنَّظَر إلى ذاتِه.

اشتِمالُ القُرآن الكريم على جُمَلٍ يَتأتَّى تَسييرُها مَسيرَ الأَمثال

ثانيها: الاهتمام بالهدى؛ لِيَزدادَ رُسوخًا في أذهان المخاطَبين.

ثالثها: لو أُضمِرَ الهُدى الثَّاني بأَنْ وردَ بصيغة (فَمَنْ تَبِعَهُ)؛ لَمَا استقلَّ بالإفادةِ بل يفتقِرُ إلى ما قبلَهُ لتفسيرِهِ، فلمَّا أُظهِرَ كانت هذه

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/203.

(2) الطِّيبي، فتوح الغيب: 2/415، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/442.

الجملةُ مُستقلَّةً بنفسِها؛ ليتأتَّى تسييرُها مسيرَ المثَلِ أو النَّصيحةِ، فَتُلْحظ فتُحْفظ، وتَتَذَكَّرها النُّفوس لِتُهَذَّب وتَرتَاضَ[1].

رابعها: "لأنَّه أراد بالثَّاني أعمَّ مِنَ الأوَّل، وهو ما أتى به الرُّسل واقتَضاه العقلُ، أي: فمن تَبِعَ ما أتاه مُراعيًا فيه ما يَشهد به العقلُ؛ فلا خوف عليهم فضلًا عَن أن يَحلَّ بهم مكرُوه، ولا هُم يفوت عنهم محبوبٌ فيحزنوا عليه"[2].

سِرُّ إضافة الهُدى ﴿هُدَايَ﴾:

شَـرَفُ الـهُـدى وعَـظَـمَـتُـه يقودُ إلى الانقيادِ

إضافَةُ الهُدى إلى الضَّمير الرَّاجع إلى الله تعالى في قوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ يُرادُ به تشريفُ المضافِ وتعظيمُهُ[3]، وأنَّه سبب الاستِقامة والبركةِ والتَّوفيق؛ ففيه مزيدُ حثٍّ وحضٍّ على الاتِّباعِ.

تَوجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفظِيِّ بين ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ و﴿فَمَن اتَّبَعَ هُدَايَ﴾:

الاجـتـهـادُ في الاتِّـبـاعِ يُناسبُ قـوَّة الـلَّـعين في الوَسوَسةِ

وردَ في سورة طه في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن اتَّبَعَ هُدَايَ﴾ [طه: 123] الفعل ﴿اتَّبَعَ﴾ والّذي في سورة البقرة ﴿تَبِعَ﴾، والفرقُ بينَهُما: أنَّ (تَبِعَ) أصلٌ، و (اتَّبع) افتعالٌ من (تَبِعَ)؛ فهو فرعٌ.

و (تبِعَ) يدُلُّ على مُطلَقِ الاتِّباعِ، مِن غيرِ تَعَمُّلٍ ولا تكلُّفٍ، بخلاف (اتَّبع) فإنَّه دالٌّ على تعمُّلٍ وتحميلٍ للنَّفس، وقُدِّم في أوَّلِ مَوضعٍ مِنَ القرآن الكريم -وهو الوارد في سورة البقرة- الفعلُ الأصلُ، وهو ما لا تَكلُّفَ فيه، وأُخِّرَ (اتَّبعَ) إلى سورة طه؛ لِمَا فيه مِنَ الزِّيادةِ على الأوَّلِ ولكونِهِ فرعًا.

ولأنَّ سورةَ البقرةِ لم يَرِدْ فيها ممَّا كان مِنْ إبليسَ إلَّا ما أخبَرَ به اللهُ تعالى عنه مِن قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ [البقرة: 36] دون بيانِ تفاصيلِ ذلك؛ فناسبه ﴿فَمَن تَبِعَ﴾، بخلاف الواردِ في سورة طه؛ فإنَّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/442.
(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/73.
(3) الطِّيبي، فتوح الغيب: 2/451، والخفاجيّ، عناية القاضي: 2/141.

اللّه تعالى ذَكَر كيفيَّة إغواءِ إبليس لآدمَ عليه السلام في قوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: 120]، وفي هذا إيماءٌ إلى ما بُسِطَ في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: 20-21]، فأفهَمَ هذا قوةَ كيدِ إبليس واستحكَام حيلَتِه، بحيثُ صار تَمييزُ الحقِّ مِنَ الباطل لا يَتَأَتَّى إلَّا بتعمُّلٍ وتكلُّفٍ؛ فناسبَهُ ﴿فَمَن اتَّبَعَ﴾[1].

وأيضًا إنَّما جاء في طه ﴿فَمَن اتَّبَعَ﴾ [طه: 123] موافقة لقوله فيها: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾ [طه: 108] [2].

نُكتَةُ تقديمِ نَفيِ الخوفِ على نَفيِ الحُزْن:

الـخـوفُ أكـثَرُ وجـودًا وأشـدُّ تأثيرًا مِنَ الحُزنِ

قُدِّمَ نفيُ الخوفِ على نَفيِ الحُزْنِ في قوله سبحانه: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ مع أنَّ سببَ الخَوفِ مُستقبَلٌ، وسببَ الحُزْنِ ماضٍ، فكان مُقتَضى التَّرتيبِ الزَّمني تقديمَ نفيِ الحُزْنِ على نفي الخوفِ، والنُّكتةُ في هذا التَّقديم: مراعاةُ الأكثرِ وُجودًا؛ فإنَّ الخوفَ مِمَّا هو آتٍ أكثرُ مِنَ الحُزْنِ على ما هو فائتٌ[3]، وخوفُ النُّفوسِ ممَّا هو قادِمٌ أشدُّ من حزنِها على ما هو فائتٌ.

توجيهُ قراءةِ فَتحِ الفاءِ من ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾:

نفيُ جميعِ أنواعِ الخوفِ الظَّاهرِ أثرُه والباطنِ

قرأ يَعقُوبُ: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ بِفَتح الفَاء من غير تَنوين، وقرأ الباقُونَ بالرَّفع والتَّنوين[4]؛ وذلك أنَّ (لا) إذا بُنيت مع النَّكرة على الفتح كان النَّفيُ بها عامًّا نحو: لا رجلَ في الدَّار، فهو نفيٌ لجميع أجناس الرِّجال في الدَّار، كأنَّه جوابُ سؤالٍ مُقدَّر: هل مِن رجل في الدّار؟

(1) ابن الزُّبير، ملاك التَّأويل: 1/30-31.
(2) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 1/265.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 1/240.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/211.

فتَكُون قراءةُ الفتح: ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ آكدَ في نفي الخوف؛ لما فيها مِن عموم نَفي جنسِ الخوف، فأفادت نفيَ جميعِ أنواع الخوف عَن متَّبعي هُدى الرَّحمن[1]، وأنَّ المكلَّف الّذي أطاع اللّه تعالى لا يَلحَقُه خوف في القبر، وعند البعث، وعند حضُور الموقف، وعند تطايُر الكتب، وعند نصب الميزان، وعند الصِّراط[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بالجُمل الاسميَّة في قوله ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾:

العاقبةُ الحُسنى الحَميدةُ لِمتَّبِعي هُدَى اللهِ تعالى

الجُملةُ في قوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ اسميَّةٌ مفيدةٌ دوامَ تلك الحالِ فيهم، وهو دَوَامُ نفي الخوف لا نفي دوامِه.

وكذا الجملةُ في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فإنَّها اسميَّةٌ مفيدةٌ استمرارَ تلك الحالِ فيهم أيضًا؛ والمرادُ دوامُ نَفي الحُزْنِ عنهم لا نفيُ دوامِه؛ لأَنَّ النَّفيَ -وإن كان داخِلًا على الفعلِ المُضارع- يُفيد الدَّوامَ والاستمرارَ بحَسَبِ المقام[3].

سِرُّ تَعديَةِ الخَوفِ بـ(على) في قولِهِ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾:

يُخفِّفُ اللهُ تعالى عَنْ مُتَّبِعِ الهُدى أَثَرَ الأَهوالِ العَظِيمَة

جاء التَّعبير في قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ دون (لَا خَوف لَهُم) أو (لا خوف عِندَهُم)؛ لما في (على) مِنَ الدّلالة على الاستِعلاءِ والإحاطَةِ، فيكُونُ المَنفيُّ استعلاءَ الخَوفِ عليهِم وتمكُّنَه منهم، وإحاطتَهُ بِهِم، لا مُطلق الخوفِ، فلا يكون فيه نفيُ خوفِ المُطيعِينَ مِنْ أهوالِ القيامةِ، لكنَّها تكونُ مُخَفَّفَةً عَنهُم، ثُمَّ إذا صارُوا إلى رحمةِ اللّه سبحانَه؛ كان حالُهم كحالِ مَنْ لم يخَفْ[4].

(1) الشِّيرازيّ، الموضَح: 1/269-270.
(2) الجاوي، مَراح لبيد: 1/17.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 1/241.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/274.

فائِدَةُ مَجِيءِ الخَبَرِ جُملَةً فِعلِيَّةً:

مجيءُ خبر المبتدأ ﴿هُمۡ﴾ جملةً فعليَّةً يقتضي تَكرارَ الإسنادِ؛ تأكيدًا لِدوامِ نفيِ الحُزنِ عن مُتَّبعي الهُدى؛ فقد أُسنِدَ الحُزنُ إلى ضميرِ مُتَّبعي الهُدى (هُمۡ) -وهو مِن إسناد الخَبَر إلى المبتدأ-، وأُسنِدَ الحزنُ إلى واوِ الجَماعةِ الرَّاجعة إليهم، -وهو مِن إسناد الفعل إلى فاعِلِه-، فلمَّا تكرَّر الإسنادُ في الموضِعَين تأكَّدَ المعنَى وقَوِيَ.

السَّعادة الأبديَّةُ للمُهتدين

نُكتَةُ تَقدِيمِ الضَّمِيرِ ﴿هُمۡ﴾:

تقديمُ الضَّميرِ ﴿هُمۡ﴾ فيه إشارةٌ إلى القصر والاختصاص، ففيهِ قَصْرُ انتفاءِ الحُزنِ عنهم، أمَّا غيرُهم فيحزنُونَ[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الهُبوطُ والنُّزول:

يُفَرَّق بين الهبوط والنُّزول بأَنَّ الهبوطَ نزُولٌ يعقُبه إقامَة، يُقال: هبطنا مَكان كذا؛ أَي: نزلنا فيه للإقامة، ومِنه قَوله تعالى: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾ [البقرة: 61]، وقوله تعالى هنا في هذه الآية: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ﴾، مَعناهُ: انزلوا الأَرض للإقامة فِيها، ولا يُقال: هَبَط الأَرضَ، إِلَّا إِذا استَقرَّ فيها، ويُقال: نزل القومُ في المكان؛ إذا لَبِثُوا فيه زمنًا ولم يستَقرّوا[2].

الإتيَانُ والمَجِيء:

يُستَخدم (جاء) للأَمرِ الصَّعب و(أَتَى) للأَمر السَّهل، قال الرَّاغب: «الإتيانُ: مجيءٌ بسهولة ومنه قِيلَ لِلسَّيل المارّ على وجهِهِ: أَتِيٌّ وأَتَاوِيّ»[3].

وقال: "والمجيءُ كالإتيَان لكنِ المجيءُ أعمُّ؛ لأنّ الإتيانَ مجيءٌ بسُهولة، والإتيانُ قد يُقال باعتبار القصدِ وإنْ لم يكُن منه الحُصول، والمجيءُ يُقَال اعتبارًا بالحُصول"[4]..

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 1/241.
(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللّغوية، ص: 296.
(3) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(4) الرّاغب، المفردات: (جاء).

وأَوضَحُ آيةٍ تُفَرِّقُ في المعنى بين الفعلين قولُه تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ [مريم: 27]؛ إذ إنَّ الحَمْل في جُملته سهل، لكنْ ما جاءت به مريمُ أمرٌ مُستَهجَن -بحسب الظَّاهر- ليس مِن طبيعة البشر، حيث أنجبت سيِّدنَا عيسى عليه السلام من غير أب، ولذلك قالوا: لقد جئتِ شيئًا عظيمًا، فعقولُهم عجَزت عن إدراكه والإيمان به.

فإتيان الهُدى مِن الله تعالى سهلٌ، وفيه تكريمٌ لبَني آدم، إلَّا أنَّ التَّمسُّك والعمل به فيه صعُوبة على النُّفوس الّتي لَم تَأْلَفْهُ.

الخَوفُ والخَشيَةُ:

الفرق بينَهما مِن وجهين:

أحدهما: أَنَّ الخَشيةَ أخصُّ مِنَ الخَوفِ وأعلى مرتبة منه؛ إذ إنَّ الخشيةَ خَوفٌ مقرونٌ بمعرفةٍ وعلم، بخلاف الخوفِ فلا يُشترطُ فيه ذلك [1].

والآخر: أَنَّ الخشيةَ تكون مِن عِظَم المَخشِيِّ وإن كان الخَاشِي قويًّا، بخلاف الخوف فَإِنَّهُ يكون مِنْ ضَعفِ الخائفِ وإن كان المَخُوفُ أمرًا يَسيرًا، ولذا تَرِدُ الخشيةُ غالبًا في حقِّ الله تعالى[2]، كما قال سبحانه: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: 21].

وذكرَ المَاوَرديُّ فرقًا آخرَ بينَهما؛ وهو أنَّ الخوفَ فيما ظَهَرَتْ أَسبابُهُ، والخشيةَ فيما لم تَظهَرْ أسبابُه[3].

الخَوفُ والحُزْنُ:

الفَرق بينَهما: أَنَّ مُتعلَّق الخوف مُستقبَلٌ، ومتعلَّقَ الحُزن ماضٍ؛ إذ إنَّ الخوف غمٌّ مِن أمرٍ مُستقبَل، والحُزْنَ: غمٌّ مِنْ أمرٍ قد فات ومضى[4].

وذكَر الشِّهابُ الخَفَاجيُّ أنَّ الخوفَ أشدُّ مِنَ الحُزْنِ[5]، ووجهُ ذلك: أَنَّ سببَ الحُزْنِ وقعَ وانقضَى، وإنَّما يتجدَّدُ الغمُّ به عندَ تذكُّرِه، بخلاف الخَوفِ؛ فإنَّ سبَبَهُ مُستقبَلٌ، وقد تكونُ فيهِ نَوعُ جهالةٍ، وربَّما كان ذلك شَديدًا عَظيمًا.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (خشى)، وابن القيّم، مدارج السالكين: 1/508.

(2) الزَّركشّي، البرهان: 4/78، والسُّيوطي، معترك الأقران: 3/485.

(3) الماوَرديّ، النُّكت والعيون: 3/393.

(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/378، والشّنقيطيّ، العذب النَّمير: 1/284.

(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/172.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الأول، من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة [إشراف مجمع القرآن الكريم،
قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 1 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-52-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 1 : من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-52-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9609262 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»